

الفصل الثالث عشر

تدريب ميول القلب ونيّاته

الحافظة على قلوب البراعم الصغيرة

إنّ اتجاه قلب أطفالك أهم بكثير من أفعالهم. إذا كانت قوتهم على التركيز ومداركهم وانضباطهم الجسماني مساوية لنواياهم، لأمكن الحكم عليهم دائماً فقط بأفعالهم. لكن نظراً لضعف الجسد، تعبّر النوايا عن خُلق الطفل أفضل من الأفعال. من ثمّ إذا كان طفلك نقي القلب، فرُعوته أو سوء تقديره يمكن أن تُقبَل منه كما لو كان بلا عيب.

على سبيل المثال، تركت إحدى الأمهات بنتها لتقوم بعمل منزلي بسيط فرجعت ووجدت البنت الصّغيرة قد توسّعت في دورها - فبدلاً من الاكتفاء «بلم» الغسيل من الحبل، طوته ورثّته. المشكلة الوحيدة هي أن بعض قطع الملابس كانت لا تزال مبتلة. لكن لما رأت هذه الأمّ بريق الافتخار يلمع في عيني بنتها الصغيرة، قبلت عملها وكأنه كامل لا يعيبه شيء. ثم انتظرت ريثما خرجت مُساعدتها الصّغيرة للعب، فأزالت الملابس الرطبة وأعدت نشرها على حبل الغسيل. ثم درّبت بنتها الصّغيرة بعد ذلك على التمييز بين الملابس المبتلة والجافة. يجب أن ينظر التدريب إلى الأفعال، لكن التأديب يجب أن يركّز على اتجاه قلب الطفل فقط. من المحرج أن ترى والداً ساخطاً على طفله لأنه سكب الحليب أو

تصرّف بحسب طبيعته الساذجة. احكم عليهم كما يحكم الله علينا: بنوايا القلب.

من ناحية أخرى، هناك أوقات لا يظهر فيها العصيان، لكن اتجاه قلب الطفل يكون فاسداً بالكامل. من ثمّ وجب على الوالد أن يكون على أهبة الاستعداد لتمييز اتجاه (نِيّة) القلب. فإذا انتظرنا حتى أزعجتنا الأفعال لنبدأ تأديبهم، كنا نتعامل فقط مع الأعراض الظاهرية، في حين يكمن جذر الخطية في القلب. اعرف قلب طفلك واحرسه. «فَوْقَ كُلِّ تَحْفُظٍ أَحْفَظُ قَلْبَكَ، لِأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ» (أمثال ٤: ٢٣). سيستغرق الأمر عدة سنوات قبل أن يستطيع طفلك أن «يحفظ» قلبه بنفسه، وإلى ذلك الحين هو أمانة عندك. دعونا الآن ندرس بعض الأمثلة من الواقع.

المراهقة المتدمرة

حكّت لنا أمّها عدة أطفال، والإعياء العاطفي واضح عليها، عن فشلها مع ابنتها المراهقة. فلما طلبت من ابنتها تغيير كفولة أحد الأطفال الصغار، «لوت بوزها» في تدمّر ونظرت إلى أمّها ولسان حالها يقول: «لماذا تفعلين هذا لي؟» فكانت هذه الاستجابة بالنسبة إلى الأمّ بمثابة عبء إضافي عليها. وبعدها ابتعدت البنت، قالت الأمّ في يأس: «سوف تقدم ابنتي حساباً لله عن نفسها. شعرتُ بالذنب لفترة قصيرة، وكان خطاياي كانت تنعكس في ابنتي، لكن (وهنا أخفضت صوتها وكأنها غير واثقة)، يجب أن تجد الله بنفسها».

رُزقت هذه الأمّ بعدة أطفال صغار، ومن دواعي خوفها أن تُرزق بالمزيد. ومع كل مسؤوليات التدريس المنزلي والحياة الطبيعيّة، لا بد أن يمنعا الإرهاق العاطفي من تحمل مسؤوليّة فتاة المراهقة، وكأنها سلّمت الأمر في هذه الواحدة لتصبّ كل ما بقي لها من قوّة في البراعم الناشئة.

في الحقيقة ليس العمل الشاق منهكاً مثل التوتر. فالإنسان المحبّط نفسياً يستيقظ متعباً. والفتاة المراهقة في هذه الحالة، بدلاً من أن تكون سبب بركة وتشجيع لأمّها، صارت عبئاً إضافياً. لكن لو كانت هذه البنت الكبرى تلقّت تدريباً وتصحيحاً لاتجاه قلبها، لما تكدّرت الأمّ الآن بهذه الدرجة. ومع أنه لا يستحيل تعديل اتجاه قلب الأطفال الأكبر سنّاً، إلا أن ذلك صعب جداً. فهم يصلون إلى مرحلة يجب عندها مناشدتهم وإقناعهم كما يُفعل مع البالغين. عندما يكبر الطفل بحيث يمسك بزمام قلبه، يجب التودّد إليه كما يفعل الروح القدس مع الخطاة.

البدء من جديد

من منكم عنده أطفال في مراحل سنّية مختلفة، في حاجة ماسة إلى الإصلاح، قد يصابون بالإحباط من مهمة إعادة تدريبهم جميعاً، التي قد تبدو مستحيلة. ابدأ بالأطفال الذين تقح أعمارهم في حين يُظهِر تحسناً سريعاً. اثبت على مبدئك في التدريب ولا تجد عنه أبداً، ولا تدعن الكبار منهم يوهنون عزيمةك. فسوف يجيء دورهم!

هناك مبدأ نفسي رائع يعمل لصالحك. عندما يدخل الجيشُ منطقةً تسمى الفوضى، فيعيد النظام إلى أحد الأحياء، تنتبه الأحياء الأخرى فتهدأ تلقائياً. اعترف لأطفالك الأكبر سنّاً بأنك فشلت في تدريبهم كما ينبغي - اقبل اللوم. لكن حيث أنك الآن عرفت الحقيقة، فستتعامل بشكل مختلف مع الأطفال الأصغر سنّاً. أمّا الأطفال الكبار المدلّلون فسيترجعون ويراقبون. وعندما يرون أقل تحسّناً في أحياءهم (أو أختهم) الصّغير المدلّل، سيقفون في صفك - حتى وإن لم يقولوا ذلك بالفم. وعندما يقتنعون بالتحوّل الإيجابي الأكيد في أشقائهم الأصغر، سيريدون منك أن تضعهم على قائمة الإصلاح. وطالما تحلّيت بالعطف ورجاحة العقل والإحسان، سيخضعون لتأديبك، واثقين بأنه لخيرهم.

في الأوقات التي يثور فيها تمرّدهم، بسبب كسل أو انفعال، يهديهم تأديبك إلى التعلّل والرشاد. وعندما تقهر واحداً منهم، سيعرف الآخرون أن الدور آتٍ عليهم وأنك جادّ فيما أنت صانع. عندما تحبس حيواناً في حظيرة، سيجري هنا وهناك باحثاً لعله يجد مخرجاً، وبعد ذلك يهدأ. كذلك يخضع الطفل بمجرد إقناعك له بعدم وجود بديل آخر.

إنّ حبّ أطفالك الطّبيعي لذواتهم هو الذي يدفعهم إلى اتخاذ أسهل موقف في أي ظرف معطى. إنّ محبة أطفالك الشديدة لأنفسهم تمنعهم من رفس المناخس، أي أنّهم سيسلّمون بالأمر الواقع الذي لا مفرّ منه. لكن تذكّر، إنّهم يعرفون أنك شخص

مذبذب ضعيف، لا تثبت على مبادئك، بل تتجاهلها كلما أزعجتك. لذلك سيحاولون جعل مبادئك تزعجك. ابدأ بالأصغر وارتقِ صُعداً نحو الأكبر. عرفهم بما سيحدث مسبقاً. دع الابتسامة ترتسم على وجهك، فلديك أسلحة سرية: *خطة* *حب* *صبر* *توبيخ* *عصا* التأديب *مشاركة.

النوبات العصبية وحدة الطبع

عادت ابنتاي وعمرهما تسعة أعوام وأحد عشر عاماً من بيت جارتنا واشتكتنا من عجز جارتنا الشابة عن تدريب طفلها. فبعدهما فشل ذلك الولد وعمره سبعة أشهر في الحصول على ما يريد، («تخشّب»، و«كلبش») يديه، وكشّر عن أنيابه (أو بالحري عن دراديره) واستنزل لعنات السماء على البيت ومن فيه. في مثل ذلك الوقت، يمكن أن يشبه التّعبير الغاضب المرتسم على وجه الرضيع ملامح المحرّضين على شغب عام. أمّا الأمّ الصّغيرة، التي أرادت عمل الصواب، فوقفت هناك في ذعر وعجز، وهزّت كتفيها ولسان حالها يقول: «ماذا يمكن أن أفعل؟» فعالجتها ابنتي التي في سنّ التاسعة بالقول: «أدّيه». فردّت الأمّ: «لا يمكن؛ إنّه لا يزال صغيراً». فأجابت ابنتي بحكمة الشخص المحنّك الذي ذاق عصا التأديب: «مادام يستطيع أن «يتعصّب» هكذا، فهو في سنّ تسمح له بالتأديب».

المشابهة

قد سأل البعض: «لكن ماذا إذا صرخ الطفل بصوت أعلى وازداد هياجه؟» للرد أقول: إذا اعتاد الطفل على تنفيذ إرادته بلا قيد، يجوز أن تتوقع مثل هذا الرد منه. فإنه سيستمر يفعل ما اعتاد عليه دائماً لتنفيذ إرادته. إن هدفه تخويفك وشلّ حركتك. لا تخنع له، بل كرّر العقاب. إلسعه على ساقه أو مؤخرته العارية ثماني أو عشر لسعات بالخيزرانة، وبينما الألم يهدأ، وبّخه بكلام هاديء. فإذا انقلب صياحه إلى بكاء حقيقي ينمّ عن الطاعة والإحساس بالألم، فقد فُزت.. وقد أخضعت إرادته. لكن إذا ظل صراخه ينم عن التحدي والاحتجاج، لا عن الألم، فلتصفعه ثانية. إذا كانت هذه أول مرة يواجه فيها شخصاً أصلب منه، فقد يستغرق الأمر شيئاً من الوقت. يجب أن يقتنع تماماً أنك فعلاً غيرت توقعاتك منه.

لا داعي للقيام بذلك في غضب. إذا كنت غاضباً ولو قليلاً، فلتنتظر حتى وقتٍ آخر. أكثر الوالدين مثقلون بالذنب والشك لدرجة أنهم عاجزون عن إكمال هذه المواجهة إلى النهاية.

إذا توقفت دون أن يدعن لك طوعاً، فقد أكّدت له قيمة وتأثير صراخه واحتجاجه. في المرة القادمة، سيَلزَمك ضعف المدة لإقناعه بتصميمك على طاعته، لأنه ذاق طعم الانتصار النهائي عليك حينما تجلّد وصبر على الألم في المرة السابقة. لكن بمجرد أن يتعلّم أن جزاء نوبة الغضب هو علقه ساخنة في الحال، لن تصدر عنه نوبة غضب أخرى. وإذا طبقت القاعدة ثلاث مرات وبعد

ذلك تهاونت في الرابعة، سيظل يترقب ذلك المنفذ حتى تقنعه بأن ذلك لن يتكرر مرة ثانية.

إذا بدأ الوالد في الطفولة منع الطفل من استعمال الصّراخ كوسيلة لتحقيق مطالبه، فلن ينميّ الطّفل هذه العادة السيئة. في بيتنا لا تُعرّف نوبات الغضب، لأنهم عرفوا من أول مرة جرّبوها أنها تحقق نتيجة عكسية.

نماذج أبوية

لا تتوقّعن من أطفالك اتجاهًا قليلاً أفضل مما في نفسك. فالوالدان المتزانان السعيدان، اللذان يهملان العصا والتوبيخ، ينتجان أطفالاً متذمّرين، كثيري الشكوى، ميالين لنوبات الغضب. لكن إذا كان أحد الوالدين أو كليهما محطماً عاطفياً، فلا تتوقّع من الطّفل غير ذلك. الطّفل ليس إلاّ حصاد طباع الوالدين. إذا كانت الأم سريعة الغضب أو كثيرة الانتقاد أو أنانية، فسيكون للأطفال نفس الميول. وإذا كان الأب متسلّطاً (فتوّة)، غضوباً، شرساً، أو ضيق الخلق، فسيكون أبناؤه مثله. إذا كان الأب وقحاً، كثير المطالب، عديم الاحترام للأمّ، فلن تتلقّى الأمّ من الأولاد إلاّ نفس المعاملة. وإذا كان الأب عصبياً أو شهوانياً، فأغلب الظن أن ينقلب الأطفال أسوأ منه. يقول الله إنه يقتص من (دُئوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الجِيلِ الثَّالِثِ والرَّابِعِ) (خروج ٢٠: ٥). يكبر الأطفال فيشابهون أباهم وأمّهم. لقد رأيت كثيرين يحتقرون خطية والديهم، فيكبرون ويصيرون مثلهم تماماً.

الدّرس الذي نتعلّمه من هذا هو: يجب أن تكونَ ما تريد طفلك أن يكونه .. فكراً وعملاً. لا تحاول معاينة القبح في طفلك، فهو مرآة تعكس قبحك الشخصي.

إياهم أن يسيئوا معاملة طفلي الصغير

من المشاكل الشائعة جداً، التي تظهر بين الأمهات أكثر بكثير من الآباء، ما نسميه: ظاهرة «إياهم أن يسيئوا معاملة طفلي الصغير». لا زلت أذكر طفلاً مغروراً يتبختر باحتقار ويهدّد بإخبار أمّه. كيف أنتج الوالدان مثل هذه القباحة؟

هذا أمر سهل. دافع عن طفلك طول الوقت وتدخّل عاطفياً في «خناقته» مع الأطفال الآخرين. دعه يراك تغضب على سوء معاملة أقرانه أو جلسائه أو معلميه أو البالغين الآخرين. عرفه بأنك تشق ثقة عمياء بأنّه دائماً على حق وأن الناس يقصدون إساءة معاملته، لكنك ستقف لهم بالمرصاد وتأخذ له حقه.

وإذا أردت أن «تزيد الطين بلة»، عندما يأتيك أحد الكبار باتّهام ضد طفلك، اتّهم ذلك الشخص نفسه بالكذب والافتراء. إذا عرف طفلك أنه يقدر أن يتصرّف في العلاقات الاجتماعية بأنانية وأنك لن تصدّق الاتّهامات الموجهة ضده، تكون أنتجت شخصية قبيحة.

طفلك لن يُؤدّي إذا اتّهم خطأً مرة أو مرتين؛ فهذا أمر وارد ويجب أن يتعلّم التعامل معه إن عاجلاً أو آجلاً. عندما يُتّهم، وتظنه

مذنباً، فلتبحث الأمر بصبر وتأن. فإذا أيقنت من بطلان التهمة، أخبره بذلك ثم اترك المسألة. لا تدعه يراك تدافع نيابة عنه.

وإذا عامله أقرانه بخشونة، ابتهج؛ فهو يتعلم مبكراً عن الحياة الواقعية. لا تخلق منه شاباً هشاً. إذا هببت للدفاع عنه كلما خطف منه طفل آخر لعبة أو أسقطه على الأرض أو حتى لكمه في أنفه، خلقت منه طفلاً منتحياً.

عندما تطالب أن يُعامل طفلك بعدل، أنت تحميه من الواقع. كلما صغر سنهم كان من الأفضل أن يتعلموا أنهم لا يستحقون المساواة. وردود فعلك لن تجعل الحياة أقل ظلماً لطفلك، إنما قد تؤسس فيه موقف الرثاء على نفسه. إذا كنت صلباً، كانوا هم أيضاً أصلاباً.

لماذا «يتقصدني» الجميع دائماً ؟

بينما أقوم بتدريس الكتاب المقدس، تساعدني ابتتاي بمجالسة خمسة أطفال دون الخامسة من العمر. ذات يوم رجعت إحدى الأمهات فوجدت ابنتها ذات الثلاثة أعوام تولول من سوء معاملة طفل صغير دون الثانية. وأكد الجميع أن الطفل الصغير أثار مشاجرة بدون تحريض كافٍ. وأن البنت الصغيرة المتفوقه عنه جسمانياً جلست على الأرض و«أدارت له الخد الآخر» فما كان منه إلا أن صفعها عليه أيضاً. ولما حضرت الأم، رثت لحال ابنتها على مسمع منها وانتقدت تصرف الولد الصغير.

راقبت ابنتاي الحالة بحذر، وفي عدة مناسبات لاحظتا الولد يهاجمها. لكن عندما اتخذ مشرفات الحضانة إجراءات تأديبية ضده، كفَّ عن سوء تصرفه. [أكثر الهجمات كانت نتيجة تعرُّه وهو يحاول السير].

هذه الطفلة النبيهة الجميلة مطيعة جداً، لكنها اعتادت ممارسة الضَّعف العاطفي كي تحقق أغراضها. فتولول على كل شيء وتظاهر بالمعاناة بما لا يتناسب مع ظروفها ونصيبها في الحياة. إن الأمَّ الشابة هي التي ربَّت فيها هذا الميل.

خلال الأسابيع التالية، كانت الأمُّ تحيي بنتها بالاستفسار عمَّ لحق بها من ألم على يد ذلك الطفل («المشاكس») في روضة الأطفال، الذي لا يتعدَّى طوله نصف المتر. فانتبه عمّال روضة الأطفال إلى أن «الضحية» كانت تقدِّم تقريراً سيئاً كل مرة. فحرصوا على مراقبتها عن قرب، وأيقنوا أنها ظلَّت تبلِّغ أمها بالهجوم عليها، حتى عندما لم يحدث أي نزاع مع المهاجم المزعوم. ولاحظوا أنها تلعب بسرور حتى وصول الأمِّ، فتقفز حينئذٍ إلى فوق وتجري إلى حضن أمها المتعاطفة وتولول لها حكايات ملفِّقة عن الاعتداء عليها.

بمرور الوقت ازدادت سمعة الطفل المتعرِّر سوءاً، وأمَّنت الأمُّ في سؤال بنتها. وبات واضحاً أن البنت الضَّعيفة عاطفياً تنتعش من لعب دور الضحية المُساء إليها.

وفي إحدى الليالي سمع جلساء الأطفال البنت الصّغيرة تقول للصبي: «اضربي. هيا، اضربي». فلما أقنعتة أخيراً بأن يمدّ يده ويضربها على رأسها، ذهبت إلى الجلساء صارخةً لتشتكي من ضربه إياها. وقد تكرر ذلك في عدة مناسبات. وعند وصول الأمّ المدافعة عن ابنتها، كانت تحكي لها البنت الصّغيرة عن إساءة معاملتها لتستدرّ تعاطف أمّها مرة ثانية.

ثم حدث في إحدى المناسبات، عندما كان الطفل الصّغير في غرفة أخرى، أن سقطت البنت وبكت لأنه ضربها. ولما وصلت الأمّ وأخبرتها المشرفات أن بنتها كذبت ولم يمسه أحد بسوء، وقفت مرة أخرى في صف الطفلة وأنكرت أن بنتها يمكن أن تكذب.

يسعدني القول إن هذه الأمّ لها قابلية للتعليم أفضل من أي شخص قابلته. فعندما تمّت مواجهتها، أدركت أنها كانت تكيف ابنتها على كسر الوصية التاسعة: «لَا تَشْهَدْ عَلَى قَرِيْبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ» (خروج ٢٠: ١٦)، كما أنها تربّي في بنتها الصّغيرة مزاجاً نكيداً. فتابت وبدأت تصحيح خطئها فوراً. وسرعان ما ظهر تحسّن ملحوظ على طباع الطفلة.

نية رديئة ومزاج فاسد

الاتجاه القلبي الرديء هو أمر رديء حقاً. لأن الطفل «كَمَا شَعَرَ فِي نَفْسِهِ هَكَذَا هُوَ» (أمثال ٢٣: ٧). «فَوْقَ كُلِّ تَحْفَظٍ أَحْفَظُ قَلْبِكَ، لِأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجُ الْحَيَاةِ» (أمثال ٤: ٢٣). لو ظهر على الطفل أقل

استياء أو ضجر في تلبية أمر أو تأدية واجب ما، فيجب التعامل معه باعتباره عصياناً. إذا تبرّم الطفل باشمئزاز، يجب أن تركّز تدريبك على اتجاه قلبه الرديء. إن «عَوْجَة» الكتفين بطريقة خاطئة تكشف عن موقف ذهني سيئ. فلتعتبر هذه إشارة بوجوب توجيهه أو تدريبه أو تأديبه. الانسراح والانسباع للأوامر هو القاعدة؛ أي شيء خلاف ذلك يدل على وجود مشكلة.

بالنسبة إلى أولئك الذين اعتادت أسرهم على عدم الطاعة والنشور، قد تظهر هذه الأهداف مضحكة وسخيفة. وبالنسبة إلى من يعتمون وضع أهداف مثل هذه لأسرتهم، قد يبدو هذا الهدف غير واقعي ومنتعناً. مُوافق. إذا رفعت بعض الأسر معاييرها ببساطة وطالبت أطفالها بهذه النوعية من الطاعة، لكان ذلك تعتياً. لكن عندما ننظر إلى الوضع باعتباره تجديداً شاملاً للأسرة، فلن يبدو الوضع غير معقول. العبوس، التبويز، الزن، كثرة الشكوى، التوسّل - هذه كلها أمراض يجب استئصالها.

وليس هذا مجرد هدف مثالي نتحدث عنه في الظاهر، بينما نحن في الباطن مستعدون للاكتفاء بأقل منه بكثير؛ إنما هو اختبار يومي في العديد من الأسر - بما فيها أسرنا. مهما بلغت عنايتك بالحديقة، ستنبت أعشاب ضارة لا بد من اقتلاعها كي لا تكون بذوراً. أقصد أن المشاكل ستأتي، لكن قاعدة التدريب التي وصفناها تضمن ازدهار الأطفال مثل روضة غناء.